

لُعْبَةُ الْعَرَبِ

مَجْلَدُ شَهْرَةِ إِدْبِيَّةِ عِلْمِيَّةِ تَارِيخِيَّةِ

من السنة ٥

الجزء ٦

سعد زغلول

Sa'd Zaghlul.

بعث مصر الحديثة من رفدتها التي خدمت فيها حياتها مع امم الشرق الاذنى
رجلان : محمد علي وسعد زغلول . وضع الاول الحجر الاساسي في استقلال مصر ،
وبنى الثاني صرح الجهاد القومي ، فكانت مصر الوثابة ، وان لم تنحصر بعد .
مات الحديوي منذ عشرات السنين وذكره حي خالد . وفي هذه الايام
فاضت روح الزعيم المحبوب ، فكان لتعبه رنة عظيمة في ارجاء الشرق والغرب ،
 واجمعت الكلمة على انه رجل مصر الاوحد . خدمت انفاسه ولم ينطفئ سراج
مبادئه الوطنية ، فحق علينا ومصر شقيقتنا بلغة الضاد وبكثير من العادات
والاخلاق والتقاليد ان نسجل له هذه الصفحة اعجابا بعقيدته وتقديرا لتلك
المسامي المتمثلة في شخصية سعد العظيمة .



ولد سعد زغلول في ناحية (ايانا) من اعمال مركز فولا عام (١٨٦٠) م
ودخل في السابعة من عمره كتاب القرية وظل فيه خمسة اعوام ثم شخص الى

دسوق حيث جود القرآن .

وقصد بعدها إلى القاهرة ودخل جامعة الأزهر ولبت يتلقى فيها العلوم خمس سنوات . وفي القاهرة تعرف إلى السيد جمال الدين الأفغاني وإلى تلاميذه أمثال محمد عبده والهابي والباجوري وعبد الكريم السلمان .

ودرس بعد ذلك القانون فصار محاميا وأحرز في المحاماة شهرة وبعد صيت حتى اضحي مضرب المثل في نبوغه القانوني في سوح المرافعة وعلى كرسي الاستشارة في محكمة الاستئناف .

وتعلم اللغة الفرنسية وهو يكاد يناهز الأربعين من سنه ولم يلبث أن حلقها وأدى بها امتحان علم الحقوق وهو قاض في الاستئناف ونال بذلك شهادة اللسانية ، وتعلم اللغة الألمانية في أثناء اعتكافه في بيته في الحرب الكبرى وتعلم الانكليزية في منافيه في عنن وسيثيل وجبل طارق .



بدأ زغلول حياة عمله بتعيينه محررا في الوقائع المصرية ، وكان على رأس تحريرها الشيخ عبده فاقام في هذا العمل سنة وبضعة اشهر يكتب باسمه مقالات في الاستبداد والشورى والأخلاق . ويقول (عباس حافظ) الكاتب المصري : « كانت مقالات المترجم عنده في « الوقائع المصرية » ، « والبرهان » من مميزات الثورة ومضمراتها » . وكان وهو محرر في الوقائع يصحح اغلاط المقالات الواردة على الجريدة ويقوم اعوجاج اسلوبها او يقوي ركة تعابيرها . وبذلك خدم اللغة العربية خدمة جليلة ، وكانت طريقته ان ينشر الرسالة بنصها ويردفها بما هو اصح منها لغة وانصح سياقا ، وهكذا صحت لغة الدواوين من علتها وحدثت نهضة مباركة في دوائر الحكومة بحيث هرع سواد الموظفين إلى المدارس الليلية ليطالبوا اللغة العربية الفصحى .

ثم انتقل سنة ١٨٨٢ الى وظيفة معاون في الداخلية فالى ناظر لقلم قضائيا الجيزة . واضطلع باهم الاعباء عندما اضطرم لهيب الثورة المرافية حتى انتهى به الامر الى ان زج باعماق السجون وهو يافع لم يبلغ التاسع عشر ريعا بتهمة الانتماء في جمعية اوهابية سميت « جمعية الانتقام » وظل سجيناً ٩٨ يوما . ثم

مال الى الاشتغال بالمحاماة فكان اول من قيد اسمه في محكمة مصر بحاميا عام ١٨٨٤ .

وقد رفع شأن المحاماة في مدة عمله فيها حتى اختارته محكمة الاستئناف نائب قاض وبذلك كان اول محام في مصر رفع قاضيا وقد اتجه لهذا التعيين زملاؤه المحامون فاحتفلوا بتكريمه وتنهت في ١٨ تموز سنة ١٨٩٢ في فندق حديقة الأزبكية فخطب في الحفلة خيار المحامين والمشرعين . وقد قالت فيه صحيفة « الأجيب » Egypt تصفه قاضيا : هو من فريق القضاة العصريين الذين يمثلون ان القانون لا يعاقب رغبة في الانتقام ويرون ان من الواجب الأخذ بالرفق في تنفيذ القانون ، وابتدى في القضاء مهارة واستقامة رقنالا الى وظيفة مستشار في محكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢ وانتقل من محكمة الاستئناف الى وزارة المعارف سنة ١٩٠٧ في الوزارة القومية ، (مصطفى فهمي باشا) فخدم معارف مصر وكاتب المعجمة وعزز اللغة العربية وختم تعليمها في المدارس الثانوية والعالية ، وانشأ ديوانا للترجمة والنشر ، واصلاح مناهج التعليم .

ووسد سعد باشا عام ١٩١٠ وزارة الحفانية في الوزارة السعيدية (سعيد باشا) وبقي في هذا المنصب الى عام ١٩١٣ .

وبعد ان قضى مدة قصيرة في عزله بعيدا عن السياسة انتخب عضوا في الجمعية التشريعية وبقي في الجمعية يدافع عن حقوق المصريين حتى حلت الجمعية في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ فعاد الى عزله ودروسه الخاصة .

وعلى اثر اعلان الهدنة ترك العزلة وطلق يجمع المذكرات ويلم حوله الانصار والاصحاب نظير لطفي بك السيد والوزير اسماعيل صدقي باشا وعلي شعراوي باشا وحمد باشا الباسل ومحمد باشا محمود وطائفة من عيون الامة . وقرر جنيمهم حضور مؤتمر السلام في فرساي لتمثيل الامة المصرية وعرض مطالبها وقد قصد سعد وعبد العزيز فهمي وشعراوي الى دار الحماية البريطانية يطلبون استقلال البلاد .

وفي ٨ آذار سنة ١٩١٩ اعتقلت السلطة البريطانية الزعماء الكبار سعد ورفاقه الثلاثة اسماعيل صدقي وحمد الباسل ومحمد محمود ونفقتهم الى ماطلة قنار

الشعب المصري ثورته الوطنية المعلومة فلم تر السلطة بدا من الافراج عن هؤلاء الاقطاب في ٧ نيسان سنة ١٩١٩ واجيز لهم فوق ذلك السفر الى المؤتمر فركبوا البحر قاصدين باريس في ١٢ نيسان سنة ١٩١٩ .

وفي هذه الاثناء ارسلت الحكومة البريطانية لجنة اللورد ملتر الى مصر للتفاهم مع المصريين فقاطعتها الامة، فعادت الى لندن ودعا الانكليز سعدا ورفاقه الذين كانوا في اوروبا مؤلف الوفد المصري المطالب بحقوق مصر الى العاصمة البريطانية وعرض هناك اللورد ملتر مشروعاً على سعد فرفضه وعاد الى بلاده سنة ١٩٢٠ فاستقبل استقبالاً عظيماً لم تشهد ارض النيل مثله .

وقبل ان يعلن الانكليز تصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢ اعتقلوا سعدا وابعدوه الى جزيرة سيشيل ونقل منها الى جبل طارق .

وظل الشعب المصري يلح في مطالبه الوطنية حتى وضع الدستور ودعي زغلول باشا بعد عودته من منفاه الى جبل طارق الى رئاسة الوزارة فكانت الوزارة السعدية الوزارة الدستورية الاولى ، فادار سعد سكان سياسة البلاد المصرية الى ان وقعت حادثته مقتل السردار السري ستاك فسقطت وزارته وتألقت الوزارة الزبورية وتعرضت البلاد المصرية لخطر الاستبداد والغاء الدستور لولا ان تداركها عقلاء الساسة وفي مقدمتهم سعد زغلول باتفاق الاحزاب السياسية سنة ١٩٢٥ فوقفت في وجه الطاغية المستبد واضطر الانكليز الى الرضوخ لصوت الامة المتحدة فاعيدت انتخابات البرلمان المصري ففازت سياسة سعد فوزاً مبيناً ثانياً .

ومن مآثره انه شكا اختلال الاوقاف الى اللورد كتشنر .
ولقد سعد الفقيد بزوج قامت في خلال نفيه باعماله فكانت في ذلك الوقت عملاً مباحياً يعتد به .

ومن المشروعات التي اشتغل سعد بها لتعزيز الثقافة في مصر تأسيس الجامعة المصرية التي تطورت الان بشكل ضخم بحيث أصبحت تعلم من مفاخر الشرق العلمية .



كان سعد خطيباً يقطن الجماعات ببلاغته فتدفع معه الى حيث يقودها «وهو شجي الصوت تمتاز فيه العذوبة بالمضاء وتشتبك الجوارح والارواح بالكوف عليه والاصغاء (١)» .

وهنا اترك وصف بلاغه وغلول بمثابة كاتب وخطيب لمن عرفه حق المعرفة عن كتب وعاشرة رئيس تحرير جريدته التي تنطق بمبادئه السياسية الاستاذ عبد القادر حمزة صاحب جريدة «البلاغ» قال : ومن الفضول على ما اظن ان احاول تصوير سعد باشا كاتباً وخطيباً فان خطبه وبياناته تملأ اسماع مصر والشرق والناطقين بالضاد جميعاً والغريون الذين لا يقرأون هذه الخطب والبيانات إلا منقولة الى لغاتهم بعد ان تكون قد فقدت اسلوبها وبلاغتها يشهدون لصاحبها بانها يملك زمام قارئه وسامعيه ولكنني احب ان اتقول هنا شيئاً يقوله سعد باشا نفسه عن نفسه وهو انه لا يقول اذا قالوا لا يكتب اذا كتب إلا بدافع من عقيدته ووجدانه فهذا هو على ما اظن سبب كبير من اسباب نجاحه في كل خطبه وكتابات .

«واكثر ميله حين يكتب الى الاملاء امامين يخطب فانه لا يحب إلا الارتجال . وقد يلجأ الى الالتقاء حينما تقيد المواقف السياسية بقيود الالفاظ ولكن ذلك يكون حينئذ عباً على نفسه حتى انه ليهجر الورق بعد قليل ويطلق لسانه من غله الثقيل .

«وطريقته هي انه يعنى بالمعنى قبل كل شيء فيهم ان يكون قويا وجليلاً فاذا استوى له اخرجهم في لفظ قوي جليل حريصاً دائماً على ان يكون السياق منطقياً غير زائد عن المعنى ولا ناقص . كذلك هو في كتابته او خطبته او حديثه فاذا انت قرأته او سمعته خلت انه ينهض بك الى مستوى رفيع .

«واذا كان ذهنه متجها دائماً الى قوة المعنى وورقة التعبير ، فكثيراً ما يجد له حتى في خطبه الارتجالية وخاصة حينما يكون منفعلاً كلمات تتطبع به ذهنك فتتمثل في ذلك صوراً حية ، تشعر كأنك تراها بعينك وتلمسها بيدك . مثال ذلك قوله في مشروع ملث حينما اختلف الناس «هل هو حمية او استقلال»

« انه حماية بالثلث » ثم قوله في احدى المفاوضات « جورج الخامس يفاض جورج الخامس » .



« تجسست في سعد فكرة مصر في عصره بكل قوة الايمان الوطني لذلك آمن الشعب به وكنس آماله في شخصه ، لذلك لم يمت سعد لانه فصحرة هذه الامال وذكرها المتجددة في نفس الشعب . وسعد حري بهذه المكانة التي بوأها الشعب اياها فقد كان عظيما منذ نشأ عظيما حتى مات (٢) »

« كان زعيما بفطرته ، يسير الشعب ثم يملك زمانه ويستولي على قيادته ويمير به الى حيث يشاء فلا ينسب الشعب في كفه . أسمع غير قوة جباله ان تطوي كل قوة اخرى وان تنور بها الأعاصير من كل ناحية فتثبت وتصلب وتجمع في نفسها الرغمة من كل شيء . قوة الحكمة وقوة الشعب وقوة البرلمان » حتى لقد كان يسهه ان يقول انه مصر (٣) .

و « ان التاريخ سيعتبر « سعد زغلول » بلا ريب اعظم شخصية انتجتها مصر الحديثة (٤) » فلقد كان للمترجم عنه نفوذ مقناطيسي على المصريين وكانت مواهبه تبدو في نداءاته للرأي العام اكثر مما تبدو في المفاوضات « الدبلوماسية » الدقيقة ويمكن ان تصف حياته السياسية بانها تقدم من المحافظة الى التطرف (٥) وقد وصفه « اللورد كرزن » ذات مرة بانها « زعيم غير مسؤول للهاج » .

وحسبك ان تقرأ قول جريدة التايمس فيه عام ١٩٠٦ فتعرف من خسرت مصر اليوم « زغلول من شيعة محمد عبده الذين امتازوا بالارتقاء والتهديب وهم الذين اسماهم اللورد كرومر « فريق الجيرون » في النهضة الوطنية المصرية ، وهو مصري عريق في وطنيته أجبع الناس على اكرامه والاعجاب به لما اشتهر عنه من الاستقامة والاستقلال » .

واحسن شهادة في الرجل قول « اللورد كرومر » العميد البريطاني في مصر

(٢) م حسين هيكال « السياسة الاسبوعية » العدد ٧٧

(٣) أ . عبد القادر المازني في جريدة « الاتحاد » المعارضة لسياسة زغلول

(٤) جريدة التيمس اللندنية .

(٥) جريدة « الديلي تليغراف » الانكليزية .



في خطبته التي ودع بها البلاد المصرية :

« واني لا ذكر ايها السادة اسم رجل قد علمتني معاشرتي القصيرة له ان احترامه احتراماً عظيماً ، واذا اصاب ظني ولم يخطئ يكون امام ناظر المصارف الجديد سعد زغلول باشا مستقبل عظيم في سبيل خدمة هذا البلاد ومنفعتها لانه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو رجل صادق كفو مستقيم مقتدر ، بل هو رجل شجاع فيما هو مقتنع به » .



كان سعد زغلول رجلاً اجتمعت فيه صفات جليلة قومت تلك الشخصية الكبيرة منها : الجلالة والقوة الادبية مع جد ونشاط في الشباب والشيوخ اذ كان في شيخوخته انشط من كثير من الشبان مع ملكة ومواهب نادرة ممتازة كالذكاء وسرعة الخاطر وحدة الذهن وحضور الجواب وفصاحة متدفقة ومنطق خلاب مع شيء من الصلابة والقوة والعنف « افادته في ظروف حياته كما جنى عليه في بعض ظروفها (٦) » .

وكان محدثاً عذب الحديث، فكما حاضرت الكنة رقيق المعاشرة .

ومن براعته في الجدل أنه كان لبقاً شديد المراس تعرض عليه الحجة بمحاولات تقض رأيه فما يلبيث ان يعقل بججتك حتى يتخذها سنداً لرأيه وقد نول به خلال سعد السريته « قاسم امين » لما اهدى اليه كتابه « المرأة الجديدة » فقال في كلمة الاهداء : « ان السعادة كل السعادة في حوار من كانت له عاطفة سعد وتفكيره وقلبه » .

ومن اقواله المأثورة :

كل امر يقف في طريق حريتنا لا يصح ان نقبله مطلقاً مهما كان مصدره عالياً ومهما كان الامر به .

كل تقييد للمصريين لابد ان يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلماً .

قد عاهدت الله منذ نشأت على ان اصبرح بما في ضميري وهذه هي التي في حياتي .

الصحافة حرة في حدود القانون ما تشاء وتنتقد ما تريد ، فليس من الرأي ان نسألها لم تنتقدنا بل الواجب ان نسأل انفسنا لم فعل ما تنتقدنا عليه . نحن نحب الحرية ولكننا نحب اكثر منها ان نستعمل في موضعها . جميل جدا ان يقال لاتجبروا على الناس ولا تقيدوا حريتهم وانها لنفتمت لفائدة يحسن وقعها في الاسماع والقلوب . ولكننا لانريد الحبر على الناس ولا تقييد حريتهم بل نريد حماية الحق وصيانه من ان يتمتع به غير صاحبه من حيث يحرم منه صاحبه .

ومن خلقه الكريم شدة وفائه لانصاره وحب الخالص لاصدقائه « ولم يفهم سعد إلا من خاصه سياسيا وخاصه المصلحة العامة دون سواها . كان سعد رجلا وكفى انه كان كذلك (٧) » .

حقا « ان زغلول باشا هو المصري بين جميع المصريين الذين كان نادر الفطنة والشرف كسياسي ، وكان يقصد ما يقول ، وينفذ ما يعد ، تلك صفات سببت فيه ثلاث مرات ولم يستطع الانكليز اغراءه بان يقبل لمصر ظل الحرية مع اختصاصه هو بنفوذ حقيقي وظهور عظيم لشخصيته (٨) » .

ومن صفاته الباهرة بل ومن اسرار عظمته تسامحه الديني ، فقد ولد مسلما وكل ما بدا منه طول عمره دل على شدة العقيدة ، وطالما افتخر بانتسابه الى الازهر ؛ ولكنه كان مع ذلك آية في التسامح الديني يعالج داء عضالا في المجتمع الشرقي وقد عمل جهده في مدة زعامته في مكافحة هذا الداء بالقول والعمل فلم يميز بين المسلم والنصراني واليهودي في خدمة البلاد والحقوق والواجبات ، ولا سيما عندما كان رئيسا للوزارة المصرية . فقد زار جماعة من السوريين المنصرين على اثر انتقاء اعضاء مجلس الشيوخ المصري وشكروا على تعيين ثلاثة من النصاري منهم اعضاء في المجلس المذكور ، فاجابهم : « اني لاعرفهم بهذا الوصف بل اعرفهم مواطنين مصريين وعليهم ان ينهضوا بعبء العمل كما ينهض اخوانهم » .



(٧) أ . الرافعي صاحب « الاخبار » وكان من خصومه السياسيين في بعض المواقف .
(٨) جريدة للانسستر كارديان الانكليزية .



لم يؤلف سعد تأليفا خاصا لانصرافه الى الاشغال السياسية وما تقتضيه من الكتابة والخطابة ، وقد ذكر انه لخص في صحب شبابه كتاب « ابن مسكويه » وطبع منه اقلية . ولكنه كتب مقالات كثيرة في جرائد « مصر » و « البرهان » و « المروسنة » وغيرها وكلها ترمي الى التحرر والاعتناق من اغلال الاجنبية ، جمع من خطبه كتب عديدة ولا يزال بعضها منشورا في الصحف والمجلات .



واول ما اعتراه المرض في اواخر حياته كلت بمصيفه في (مسجد وصيف) يوم الاثنين ١٥ من آب سنة ١٩٢٧ اذ اصابته « الحمرة » فارتفعت حرارة جسمه ، فعاد الاطباء واسعفوا ثم قرروا نقله الى القاهرة فرجع اليها على الباخرة النيلية (محاسن) واطمان في داره . وظهر التحسن في صحته ، ولكنه اصبح يوم الاثنين تبعا وعادت حرارته فارتفعت وفي صبح الثلاثاء نهامس اخصاؤا بان حياته في خطر ، وشعر هو بنفسه اجلا ، وكلت آخر ما قاله لزوجته النيلية « اني انتهيت » . وظل طول ذلك اليوم محبسا اللسان ، حتى فاضت روحه الساعة العاشرة مساء (الثلاثاء ٢٣ آب ١٩٢٧) فاصدر مجلس الوزراء المصري بلاغا رسميا بالفاجعة ، كما نشرت ادارة الامن العام نظام تشييع الجنازة وقد شيع جثمانه الى مرقد الاخير بموكب تضم لم يشهد المصريون تشييعا مثله لعظيم من عظمائهم في القرن الاخير . وطفحت الصحف المصرية ، وكذلك الصحف العربية والافرنجية بالبحث عنه ووصف عظم الرزء فيه واتشعت بالحداد عليه ثلاثة ايام ويكتبه الاقلام ورثاء الشعراء .

وقرر مجلس الوزراء تخليدا لهذا الرجل العامل :

١ - ان يقام له تمثال في القاهرة وآخر في الاسكندرية نصبان في اهم الميادين العامة في المدينتين .

٢ - ان تشتري الحكومة بيتا المسمى بيت الامة » وتضمه الى الاملاك العمومية المخصصة بالنافع العامة . على ان يبقى حق السكنى فيه لحرم الفقيد مدى الحياة .

٣ - ان ينشأ مستشفى او ملجأ في القاهرة يطلق عليه اسم « سعد زغلول » .

« ان تشترى الحكومة البيت الذي ولد فيه ببلدة « أمانة » بمركز « فو » بمديرية الغربية وتضمه الى الاملاك العامة المخصصة بتفع الجمهور . »



ومما يروى عن مترجنا في مواقف غيرته وعنفه ان ساقه الحديث يوما وهو وزير للحقانية امام الحديوي عباس حلمي الثاني فاندفع برغم حجة بالبراهين ثم دق بيده على المنضدة واقفا حجة امير مصر قائلا « انا الوزير المسؤول فلا بد من اقرار مشروعي » شأنه في ذلك امام منضدة المحكمة حينما كان ينفع حجة زميله المحامي .

ووفد عليه في احدى الايام جمهور من الفلاحين فقصت بهم ساعة بيننا ، فخرج اليهم وجلس على الارض معهم وهو يقول « انا فلاح مثلكم » لذلك قالت فيه جريدة « افنتك استلرد » « كانت له دهاء الفلاحين يشبه الرئيس كروكر فقد كان كلاهما وطنيين مخلصين متفانيين في اخلاصهما لكن زغلول اقل فظاظة من كروكر . » وشبهته لصحيفة « شفيلد ديلي تلكراف » « بدغاليرا » لاولندة وقالت ان غريزته السياسية اعظم من غريزة « دغاليرا » .

رفائيل بطي

(بمبيجة لا يبجي)

Bu 'aidjeh

دجلة في انحدارها من الموصل الى بغداد تمر بموطن ضيق يظهر للرائي كأن دجلة تبجع المكان ، فترى السماء بين الحلقين . او الجبلين فسمى الاهلون ذلك الموطن « بمبيجة » (بالتصغير) ولما كان الانكليز لا يستطيعون ان يلفظوا العين لفظا صحيحا حذفوها فقالوا « ببجة » ثم ان اهالي تلك الانحاء يميلون لفظ الهاء الى الياء فقالوا يبجي واليوم لاتسمع من اقوال الاهالي انفسهم إلا « يبجي » اي يفتح الباء واسكان الياء وكسر الجيم وياء ساكنة في الآخر ومنهم من يشدها . فاذا مر قرن على مسخ هذه اللفظة ، فمن ذا الذي يعرف اصلها ؟ - ذلك من اثر القوي في الضعيف .